﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزمر: 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مَـن يـهـتـدي بـهـدايـة الـلـه فإنّه يُعِدّ نفْسَه لمواجهة الموتِ وما بعدَه

هذه الآية عجيبةُ التّناسب مع ما قبْلها، فإنّ الآية السّابقة تشيرُ إلى جانب الاختيار في حياة الإنسان وما يمكنُ أن يتحكّمَ به ويتصرّفَ فيه، وهو اختيارُ ما شاء منَ الهدى أوِ الضّلال. وفي هذه الآية انتقالٌ إلى جانب الاضطرار وما لا دخلَ للإنسان بالتّحكم فيه أوِ التّصرّف معه، وهو حقيقةُ الموت ومُلاقاةِ المصير، ويكأنّه أراد الإخبارَ إلى أنّ اختيار الإنسان يؤثّرُ على مصيره، فما يختارُه موصولٌ بلحظة وفاته وموته. ومن جهةٍ أخرى: فإنّ الله يقيمُ الحجّةَ على خلقه بما لا يحتملُ التّردّدَ أوِ الرّيب، كأنّه يقول: كما أنّ توفّيَكم في منامكم وعند مماتكم حقٌّ لا ترتابون فيه، ولا دخلَ لكم في تصريفه، فكذلك إنزالُ الكتاب على رسوله حقٌّ لا ريبَ فيه، فليكن حالُكم الاهتداءَ به اختيارًا؛ توسّلًا به واستعدادًا إلى ساعة الاضطرار ومفارقةِ الحياة بالموت. فالآية هنا تمزجُ اختيارَ الإنسان مع الوعي بالموت، امتزاجَ الوسيلة بالغاية، فالآية قبْلها تمهيدٌ لها.

ومن جهةٍ أخرى: فالآية هنا تُضفي منطِقًا مستقيمًا يوحي للنّاس أن يتّبعوا الكتابَ الذي نزل بالحقّ ويسلّموا لهدايته، كما هم يسلّمون بحقائق وجودِهم كمنامهم باللّيل والنّهار ووفاتِهم بالموتِ وبلوغ الأجل، فإنّ تصريف ذلك كلِّه راجعٌ إلى الله وحده، فالذي كتبَ عليهم النّومَ والموتَ هو الذي أنزل الكتابَ بالحقّ، فكما خضعوا لآثار أفعالِه فيهم، فلا أحدَ منهم يقدرُ على ألّا ينامَ، وألّا يموتَ، فليخضعوا كذلك لمقتضيات إرادتِه لهم بالإيمان والهداية.

العارفُ سرَّ الله في القدرة هانت عليه المصائبُ

ولمّا كانتِ الوكالةُ لا تصلحُ إلّا للقادر في إدارة الشّيء الموكَل فيه، وكان حفظُهم على الهدى وعنِ الضّلال لا يكون عليه إلّا لحاضرٍ لا يغيبُ ولا يعتريه نومٌ ولا يطرقُه موت، لم تصحَّ وكالةُ أحدٍ منَ الخلق فيه؛ لأنّهم سيضيعون عند نومه وموته. وزاد على هذا المعنى منَ الفوائد ما يُعرف بالتّأمّل من تشبيه الهداية بالحياة واليقظة والضّلال بالموت والنّوم، فكما أنّه لا يقدرُ على الإماتة والإنامة إلّا الله فكذلك لا يقدرُ على الهداية والإضلال إلّا الله، فمَن عرف هذه الدّقيقةَ عرف سرَّ الله في القدرة، ومن عرف السّرَّ فيه هانت عليه المصائبُ، فهي تسليةٌ له ﷺ[1].

كلُّ نفسٍ صائرةٌ الى الله تعالى بما فيها من هدى أو ضلال.

مناسبةُ هذه الآية لِما قبْلها هي أنَّ الآية السّابقة قد جاء فيها ذكرُ القرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى على نبيّه ﷺ هدى ورحمةً للنّاس، وروحًا وحياةً للنّفوس. وفي هذه الآية بيانٌ لمصير النّفس الإنسانيّة، وأنّها صائرةٌ إلى الله، بما تحملُ من هدى أو ضلال، وبما معها من نور القرآن، أو ظلامِ الشّرك[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَوَفَّى﴾: (وفى) أصلٌ يدلّ على إكمالٍ وإتمام. وتَوَفَّيْتَ الشّيءَ واستوفيتَه: إذا أخذتَه كُلَّه. ومنه يُقال للميّت: توفّاه الله[3]؛ أي: استكمل قبْضَ روحه عن جسده، فكأنّه استوفاها منه، فلم يترك له منها شيئًا. أو لأنّه استكمل أجلَه واستوفى رزْقَه، فكان ذلك تمهيدًا لموته. وهذا هو معنى: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾، وتلك العبارةُ كنايةٌ عنِ الموت، لا أنّها الموتُ؛ لأنّ الموت لازمٌ عنِ استيفاء الآجال والأقدار، فإذا وُفّيَ العبدُ إيّاها – لزِم بعدَها أنْ يموت.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 517.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1160.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).

2) ﴿فَيُمْسِكُ﴾: إمساكُ الشّيء: التّعلّقُ به وحفظُه. يُقال: أمْسَكْتُ عنه كذا، أي: منعتُه[1]. وأصلُ (مسك) يدلّ على حبْس الشّيء أو تحبُّسِه[2]. ومعنى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾، أي: يستبقي الرّوحَ التي توفّاها سبحانه لا يردُّها إلى بدنها إذا كان قد قضى عليها الموتَ[3]، فيكونُ بذلك قد حفظَها عنده، وحبسَها ومنعها أن تفيءَ إلى الجسد مرّةً أخرى.

3) ﴿وَيُرْسِلُ﴾: (رسل) أصل يدلّ على الانبعاث والامتدادِ على تَؤُدَةٍ[4]. ومعنى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: يبعثُ الأنفسَ الأخرى التي لم يقض عليها الموتَ، بانبعاث الرّوح فيها، وإمدادِه لها؛ لإكمال مُدَّتِها وأجلِها، وهذا الإرسالُ للأرواح إلى مقارّها في الأبدان حادثٌ على جهة اللّطف والتّؤُدة في سريانها إلى وِجْهتِها.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نـظـامُ الـنّـوم والمـوت داعٍ إلى زيـادة الإيـمـان وتسليمِ الأنفس لمولاها ومُصرّفِها

تبيّن الآيةُ الكريمة قدرةَ الله الكاملةَ على التّحكّم في الأنفُس في النّوم والموت، في إشارةٍ إلى أنّ الموت والنّوم كلاهما وسائلُ لتذكير الإنسان بضعفِه وحاجتِه الدّائمة إلى خالقه. فيخبرُ اللّه سبحانه عن نفسه: أنّه يتوفّى النّفوسَ عند حلول أجلِها بالموت، فيقبضُ الأرواحَ التي قضى عليها بالموت الكاملِ. كما يتوفّى الأنفسَ الأخرى - وفاةً صغرى - التي لم يُكتب لها الموتُ عند النّوم، في إشارةٍ إلى أنَّ النّوم شبيهٌ بالموت؛ لأنَّ الرّوح تُقبَض فيه عنِ التّصرّف والتّمييز. فاللّه يُبقي الرّوحَ التي كُتب عليها الموتُ فلا تعودُ إلى الجسد، بل تبقى في عالم البرزخ. أمّا الأرواحُ التي لم يُقض عليها بالموت، فيعيدُها إلى أجسادها بعد النّوم؛ لِتُكمل حياتَها حتى يحينُ أجلُها المقدّر. ثمّ

(1) الراغب، المفردات: (مسك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسك).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مسك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (رسل).

تُختَمُ الآيةُ بأنّ هذه العمليّةَ الإلهيّة - الإمساكَ والإرسالَ - فيها دلائلُ واضحةٌ على قدرة الله وحكمتِه، وهذه الدّلائلُ هي عبرةٌ - فقط - لِمَن يتأمّلُ ويتدبّرُ في عظمة الخلق وتصريفِ الأمور[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾ ابتدائيّةٌ مستأنفةٌ ممّا قبلَها، ولذلك فُصِلَتْ، ويصحُّ أنْ تكون استئنافًا بيانيًّا مُعلِّلًا لجملة الفاصلة: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾، كأنّه سأل سائلٌ عن علّة انتفاء وكالتِه عليهم، فأجيب: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾، على تقدير تضمّنِها لتعليل نفي الوكالة، أي: لأنّه لو وُكِّل إليك أمرُهم لضاعوا عند نومك وموتك[2]، فلمّا كان الله حيّا لا ينامُ ولا يموتُ، وكان كلُّ مَن سواه ينامُ ويموتُ، كان حقيقًا هو بوكالته على الخلْق، دون غيره.

الحقيقُ بالوكالة على الخلْق الحيُّ القيّومُ الذي لا ينامُ ولا يموتُ

نكتةُ إيثارِ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ على غيره:

أسندَ التّوفّي إلى اسم الألوهيّةِ الأعظمِ في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾، فلم يقل: (الرّحمن يتوفّى، أو القدير، أو غيره)؛ للدّلالة به على مجامع الكمال؛ لأنّ المقام مقامُ تحدٍّ وجلال، وطلاقةِ قدرةٍ وعِلْم وحكمة، فعبّرَ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لأنّه مجمعُ الصّفات جميعًا، إشارةً إلى كون التّوفّي الحاصلِ هو مُقتضَى لصفاتٍ عديدةٍ مجتمِعة، فعبّرَ عنها بأجمع اسم، وهو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي ليس لشائبةِ نقصٍ إليه سبيلٌ؛ لاقتضاء الحال له، ولا يصلحُ للوكالة غيرُه[3]، فتقع أفعالُه بالِغةَ التّمام والكمال، لا تعقيبَ عليها، ولا فتورَ يشوبُها.

إيثارُ اسمِ الجلال؛ للتّنبيه على الكمال

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 182، وابن جزي، التسهيل: 2/ 22، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 518، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 262، والقنوجي، فتح البيان: 12/ 120.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 517.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 517.

فائدةُ تقديمِ لفظِ الجلالة على المُسند الفعليِّ:

وفـاةُ الأنـفس فعلٌ مخصوصٌ بالله سبحانه

تقديمُ لفظِ الجلالة على المُسند الفعليِّ في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾، ولم يقل: (يتوفّى اللّهُ)؛ لإفادة قصرِ الفعل على الفاعل، وهو الله سبحانه[1]، أي: الله وحده هو الذي يتوفّى الأنفُس، فلا تحدثُ لها الوفاةُ من غيره، ولا يَشترِكُ معه أحدٌ في إحداثها، ولا تتوفّى هي من تلقاء نفسِها، فإنْ قيل: الملائكةُ يقبضون الأرواحَ، فيكونون مشتركين مع الله في إحداث الوفاة؟! فالجوابُ: أنّ توفّيَهم للأرواح لا من ذواتِهم، ولا بقدرتِهم؛ بل بتقدير الله وتسخيرِه لهم، فكان ذلك انقيادًا منهم لأمْر الله وفِعلِه فيهم، وليس اشتراكًا معه.

فائدةُ التّعبيرِ بـ﴿يَتَوَفَّى﴾ مادّةً وصيغةً:

استيفاءُ مقاديرِ الأنـفس مُـؤذِنٌ بالموتِ والانتقال

التّعبيرُ بالتّوفّي في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾ للدّلالة على معنى استيفاءِ مُتعلَّقاتِ الشّيء واستتمامِه؛ فالوافي: هو الذي بلغ التّمامَ[2]. والنّظمُ جارٍ على تقدير مضاف: (اللّه يتوفّى مقادير الأنفسِ حين موتها)، أي: حين يُميتُها يكون قدِ استوفى لها أقدارَها منَ الأجَل والرّزق وسائرِ مكتوباتها منَ القَدَرِ خيْرِه وشرِّه. ويصحُّ أن يكون التّوفّي واقعًا على ذات الأنفُس؛ أي: يستوفي النَّفْسَ منَ الحياةِ والحركة، فيتركُها حين يُميتُها بلا أدنى حركةٍ ولا حياة، فيلزمُ عنه انتهاءُ أقدارها واستتمامُ أجلها ورزقِها، فيكون وفاةُ النّفسِ كنايةً عن لازمِه من بلوغ غايةِ القدر والرّزقِ والأجَل. وعبّر بالمضارع: ﴿يَتَوَفَّى﴾؛ لكون الوفاة فِعلًا للّهِ في الأنْفس متكرّرًا ومتجدِّدًا فيها على سبيل البدليّة، فيقعُ في نفْسٍ، ثم يحصلُ في أخرى، ومعنى على سبيل البدليّة، أي: تَكرار التّوفّي يقعُ في نفْسٍ بعد نفْس، فالتّكرارُ لا يقعُ على النّفْس الواحدة؛ بل يقعُ في الأنفس جميعًا، بتبدّل الفِعلِ في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 262.
(2) الراغب، المفردات: (وفى).

إيقاعه واحدةً بعد أخرى، فلا يقعُ مرّتين على محلٍّ واحد. ومجيءُ الفعل على صيغة (تفعّل - توفّى)؛ ليدلّ على وقوع الفعل على أتمِّ وجْهٍ له في القوّة والإتقان، أي: يفعلُ في وفاتها فعلَ مَن يجتهدُ في ذلك؛ بأن يقبضها وافية؛ لا يدع شيئًا منها في شيء من الجسد[1].

عـدمُ التّعبير بالأبدان للإشارة إلى سلب الرّوح وليس الجسدَ

ومع كون المُرادِ منَ الأنفُس الأبدانَ المسلوبةَ عنها الأرواحُ، فإنّه لم يُعبّر بها، فلم يُقلْ: الله يتوفّى الأبدانَ حين موتها؛ لأنّ التّعبير بالإبدان يوهِمُ أنّ التَّوفّي والإماتةَ واقعٌ عليها في غير حالِ تعلّقِ الرّوح بها، ولذلك عبّر بالنّفس؛ ليدلّ على أنّ وفاتَها حين موتها يكون بسلبِ الرّوح منها التي هي مادّةُ حياتها، فيقعُ التّصوّر لعمليّة انعزال الرّوح عنِ الجسد، لأنّ ذلك هو الغرضُ، وإلّا لَما كان لذِكْر ﴿يَتَوَفَّى﴾، و﴿مَوْتِهَا﴾ معنًى.

نكتةُ إيرادِ ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾ على جمع القِلّة:

جميعُ النّفوس تتساوى أمامَ قدرة الله تعالى

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (يتوفّى النّفوس)؛ بل آثرَ جمعَ القِلّة: ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾، مع أنّها نفوسٌ كثيرةٌ؛ إشارةً إلى أنّها وإن تجاوزتِ الحصرَ فهي كنفسٍ واحدة، فهي قليلةٌ هيّنةٌ في جنْبِ قدرةِ الله، كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28][2].

نكتةُ العدولِ عنِ الواحد إلى الجمع:

اصطفاءُ الجمعِ يدفعُ توهّمَ الوفاة لنفسٍ واحدةٍ فقط

مع كون تلك النّفوس جميعًا هيّنةً على الله في جنْبِ قدرته، وقبْضُ جميعِها، كقبضِ واحدةٍ منها، فإنّه لم يقل: (يتوفّى النّفس) بالتّوحيد، بل قال: ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾؛ لئلا يُتوهّمَ أنّ الوحدةَ مُرادةٌ على حقيقتها[3]، فيُظنَّ أنّ الوفاة واقعةٌ لنفسٍ واحدة فقط، فأوردها على الجمع؛ لإرادة التّعديد، ولِأنّ ذِكْر النّفس الواحدة إنّما ورد على وجْه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 518.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 518.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 518.

التّشبيه، أي: تشبيه النّفوس العديدة بالنّفس الواحدة في سرعةِ ويُسْرِ إيقاع الفعل عليها، ولذلك قال: ﴿كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28] على التّشبيه لا على الحقيقة؛ لأنّ إيقاع الفعل على الحقيقةِ واردٌ على أَنْفُسَ شتّى عديدةٍ، لا على نفْسٍ واحدةٍ فقط، فلمّا خلا النّظمُ هنا منَ التّشبيه، صرّح بالأَنْفُسِ على صيغة الجمع.

معنى (ال) في ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾:

(ال) في ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾ لاستغراق الجنس، فينوبُ عنها لفظُ (كلّ)[1]، أي: يتوفّى كلَّ الأَنْفُس حين موتِها، والاستغراقُ حاصلٌ على التّوزيع؛ لأنّ الأنفس لا تموتُ جميعًا في حينٍ واحد، فلا يقعُ التّوفّي لها جميعًا على التّزامُن، بل على التّفريق.

كـلٌّ يـمـوتُ ولا نفسٌ مُستثناةٌ منَ التّوفّي

بلاغةُ المَجازِ العقليّ في إسناد الموتِ إلى النّفس:

يصحُّ أن يكون إسنادُ الموت والنّوم إلى النّفس في قوله: ﴿مَوْتِهَا﴾، و﴿مَنَامِهَا﴾ مجازًا عقليًّا؛ لأنّ الموت والنّوم من أحوال الأبدان، لا من أحوال النّفْس. وهذا مبناه على المغايرة بين النّفْس والبدن، على اعتبارِ أنّ البدن ليس من بناء النّفْس، وأنّ النّفْس هي الرّوحُ المسلوكة في البدن، وعلامتُها جرَيانُ النَّفَس، ولذلك سمّيتْ نفْسًا باعتبار أثرِها من جرَيان النَّفَس في البدن دخولًا وخروجًا[2].

المـــوتُ يُـتـلِـف الأبـــــدانَ لا الأرواحَ

بلاغةُ المَجازِ المُرسلِ في لفظِ النَّفسِ:

وقد سبق بيانُ أنّ المُرادَ بالنّفس الذّاتُ المكوَّنة منَ البدن والرّوح جميعًا[3]، وأنّ المُراد بالنّفس في الآية: البدنُ الظّاهر دون الرّوح؛ ودلالةُ النّفْس على البدن فقط دلالةُ تضمّنٍ، وهي دلالةُ اللّفظ على جزء معناه، كما يُقال: البيت، ويُراد به غُرفةٌ فيه، أو طابِقٌ فيه. وهو من باب المجاز المرسل، لعلاقة الكليّة، بإطلاق الكلّ وإرادةِ الجزء.

دلالـةُ النّـفْس على البدن فقط دلالـةٌ على جُزءِ المعنى

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/ 115.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 262.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 395.

تعطيلُ الشّيءِ من فائدتِهِ، كانتزاعِه وإزالتِه بالكليّة

وإنّما عبّر عن إفراغ الرّوح منَ الأبدان، بسلبِ النّفْس جميعِها، مبالغةً في جعلِ سلْبِ جزءٍ منَ النّفس، كسَلْبِ ذاتِ النّفْس، بتنزيل إزالةِ الفائدة منَ الشيء منزلةَ إزالة ذاتِ الشّيء؛ فالبدنُ بالموت لا فائدةَ منه، والرّوحُ إذا زالتْ عنه فسدَ تعلّقُها المُؤثِّرُ بالحياة، فتكون النّفسُ في حُكم الزّائلِ بذاتِه[1].

حذفُ المُضافِ:

صحّ إجراءُ التّركيب على حذف المضاف، على معنى: (اللّه يتوفّى الأنفس حين موتِ أبدانها)[2]. وفي الاكتفاء بالمذكور سَعةٌ في المعنى، وثراءٌ في الدّلالة، وغنًى في التّعبير.

فائدةُ القيد بالظّرف في: ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾:

وفاةُ الأنفس بإتمام قدَرِها واقعٌ إذا الموتُ حضرَها

ظرفُ الحين في قوله: ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ مُتعلّقٌ بقوله: ﴿يَتَوَفَّى﴾، وتقييدُ وفاة الأنفس بذلك الحين المُضافِ إلى الموت؛ لتعيين زمنِ التّوفّي المذكور وحالِه، أي: يتوفّاها في زمنِ وقوعِ موتها، أو في حالِ موتها، وإضافةُ الحين إلى الموت؛ لبيان ما في ظرف: ﴿حِينَ﴾ من إبهام، وهو من تخصيص النّكرة بالإضافة[3].

موقعُ جملةِ: ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾:

النّفسُ بين حالين مُتوفاةٌ بالموت ومستأنفةٌ بالنّوم

جملةُ: ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ معطوفةٌ على: ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾[4]، أي: (الأنفس التي ماتت، والأنفس التي نامت)؛ للجمع بين حالين لا ثالثَ لهما من أحوال الأنفس، وهي استيفاءُ مقاديرها إذا ماتت، واستئنافُ مَن لم يمت منها إذا نامت.

بلاغةُ المجازِ بالحذف:

في جملة ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ مجازٌ بالحذف، والتّقدير:

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 395.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 262.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 9/ 670، والخطيب، التفصيل: 24/ 22.
(4) الخطيب، التفصيل في الإعراب: 24/ 23.

(والتي لم تمت في منامها لا يتوفّاها كمن ماتت)؛ لأنّه يستأنِفُها إلى سائر مقاديرها بالأجل المسمّى التي لم تبْلغْه بعد. ويجوز أنْ يكون قوله: ﴿فِي مَنَامِهَا﴾ متعلّقًا بفعلِ وفاةٍ مقدّرٍ؛ لدلالة الأوّل عليه، فهو منَ الحذف التّقابليّ المجازيّ، أي: (يتوفى الأنفس حين موتها، ويتوفّى التي لم تمت في منامها)[1]. وتغيّرُ المتعلَّق يُؤذِن بتغاير الوَفاتين، فتوفّيها حين موتها بقطع الحياة عنها، وتوفّيها في منامها بقطع التّصرّف والإرادة عنها، فالتّوفّي الأوّلُ لا حياة معه، والتّوفّي الثّاني مع بقاء الحياة. والأوّلُ يقع في البدن ظاهرًا وباطنًا، والثّاني يقعُ في الظّاهر دون الباطن، فبين الوفاتين مشاكلةٌ لفظيّة، فالتّوفّي مع الموت توفٍّ كلّيٌّ، والتّوفّي مع النّوم توفٍّ جزئيٌّ. وكلاهما توفٍّ على الحقيقة بمعنى بلوغ التّمام في الحدّ المضروب، فحدُّ التّوفّي الأوّل الموتُ، ولذلك تُستوفَى به الآجالُ والأرزاق والمقادير كلُّها؛ لبلوغها غايةَ الموت، وحدُّ التّوفّي الثّاني النّومُ، ولذلك تُستوفَى به تصاريفُ اليوم ومقاديرُه التي انتهتْ بالنّوم.

توفّي الموت توفٍّ كلّيٌّ، وتوفّي النّوم توفٍّ جزئيٌّ

دلالةُ التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

التّعريف بالصّلة في قوله: ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾؛ للعهد، أي: وتلك الأنفسُ المعهودة بنومها وعدمِ موتها يتوفّاها كذلك وفاةً صغرى دون وفاةِ مَنْ ماتت. ويصحُّ أن يكون التّعريف بالصّلة لإرادة الجنس؛ أي: ذلك الجنسُ منَ النّفوس النّائمة. والفرقُ: أنّ العهد معلومٌ للمخاطَب، فكأنّه يُخاطِبُ في كلِّ واحدٍ نفْسَه، فيستحضِرُ حالَه وهو نائمٌ، وأمّا الجنس فغيرُ معلوم على الخصوص، بل على عمومِ التّصوّر والاستحضار[2]. وفي التّعريف بالصّلة هنا تمييزٌ للموصول بصلته، أي: تمييزُ تلك النّفس التي لم تمت في منامها،

النّومُ موتةٌ صغرى، ففيه طبْعٌ منَ الموت

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 262.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 122.

بأنّها نفْسٌ ناجيةٌ من مقتضى الموت، وهو النّوم، كأنّه حين قال: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾، بتقييد عدمِ موتها بمنامها - أراد أن يشير إلى أنّ النّوم من مقتضيات الموت ومَداريجِه، فكأنّ تلك النّفسَ النّائمة كانت بنومها على دَرَجٍ من مدارج الموت، ومع ذلك نجتْ ولم تمت في منامها، ولعلّ تلك الإشارةَ هي نكتةُ التّقييد بمضمون صلةِ الموصول، لأنّه كان يمكنُ أن يُقال في غير القرآن: (ويتوفّى التي نامت)، دون نفي حالِ الموت عنها بقوله: ﴿لَمْ تَمُتْ﴾.

بلاغةُ الاستعارة في الآية:

النّائمُ متوفٍّ بالهيئة

في قوله: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ استعارةٌ تصريحيّة، على تقدير: (والتي لم تمت في منامها يتوفّاها كذلك، لكنْ وفاةً صغرى)؛ إذ شبّه النّائمين بالمُتوفَّين منَ الأموات، بجامع زوالِ التّصرّف والتّمييز عن كلٍّ، فتقديرُ الوفاة مع النّوم تنزيلٌ للنّائم منزلةَ الميّت في ظاهر الحال[1].

معنى الفاء في ﴿فَيُمْسِكُ﴾:

تفريعُ نتائجِ الوفاة وتفصيلُها بعد إجمال الحكم يُعين على التّفكّر

الفاء في قوله: ﴿فَيُمْسِكُ﴾ للتّفريع؛ لإفادة أنّ مدخولَها فرعٌ مترتّبٌ على ما سبقها[2]، فالفاء تفريعٌ عن عمليّة التّوفّي، في قوله: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾، والتّوفّي المقدّرِ في: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾؛ لتبيين نتيجةِ هذا الفعل الإلهي. وهي كذلك فاءُ التّفصيل المبيِّنةُ لتفاصيل جزئيّاتٍ متعلّقةٍ بأمرٍ مذكور سابقًا، كأنّه قيل: يتوفّى الأنفسَ حين موتها وفي منامها، وتفصيلُ ذلك وتكييفُه: كيتَ وكيتَ. فمعنى تفصيل الفاء: أنّها تفصّل وتبيّن ما يحدث لكلّ فصيلٍ ونوعٍ من هذه الأنفس: الميّتة، والنّائمة. وهو من باب تفصيل المصير، بعد إجمال الحكم، فحكمَ عليهما بالتّوفّي إجمالًا، ثمّ بيّن مصيرَ كلّ نوعٍ تفصيلًا، وهو ممّا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 430.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 518، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 25.

يعينُ على التّفكّر والاستنباطِ والتّوقّف للملاحظة، ولذلك ختم الفاصلةَ بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

بلاغةُ المجاز في فعل الإمساك:

الإمساكُ يدلّ على شدّة القبض والتّمكّنِ منَ الفعل

أصلُ الإمساك في قوله: ﴿فَيُمْسِكُ﴾ هو القبضُ على الشّيء بالجارحة، فيمتنعُ عمّن سوى آخِذِه، ثمّ استُعمِل في الحبْس والمنع عمومًا، وإنْ لم يقع فيه تناولٌ بالجارحة، فالإمساكُ في الآية: مجازٌ عنِ الحبْس والمنع، أي: يحبسُها ويمنعُها عنِ التّعلّق بالجسد، وهو جارٍ على الاستعارة التّصريحيّة، شبّه منْعَ الشّيءِ في حيّز الحبْس، بإمساك شيءٍ والقبْضِ عليه في حيّز الكفّ، بجامع الانحباسِ في كلٍّ[1].

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

لا مهربَ للنّفس من إمساكٍ ناتجٍ عن قضاءٍ نافذٍ لا مُعقّبَ له

التّعبيرُ بالاسم الموصول وصلتِه في قوله: ﴿ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ الغرضُ منه: تمييزُ تلك الأنفس وتعيينُها بمضمون الصّلة، وهي كونُ الإمساكِ المذكور حاصلًا للأنفس التي قُضي عليها بالموت. ولذلك لم يقل: (فيمسك واحدةً ويرسل أخرى)؛ لأنّ المراد تقييدُ الإمساك بالميّتة دون غيرها، فتعيّن ذلك بمضمون الصّلة.

وأيضًا: تعريفُ النّفس بالصّلة في: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ مُشعِرٌ بعلّة الحكم، فالتّعبير بـ﴿قَضَىٰ﴾ في حيّز يدلّ على أنّ علّة إمساكِها بسبب القضاء عليها بالموت، وإذا كان ذلك قضاءً، فلا مفرَّ لهذه النّفس من ذلك الإمساك، فإمساكُها ناتجٌ عن قضاءٍ وحكمٍ نافذٍ لا معقّبَ له[2].

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿عَلَيْهَا﴾:

القضاءُ على النّفس بالموت مختصٌّ بها لا يُفلِتُها، ولا أن يلتحِق بغيرها

تقديمُ شبهِ الجملة ﴿عَلَيْهَا﴾ في قوله: ﴿عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾، ولم يقل: (قضى الموت عليها)؛ لإفادة الاختصاص وتقويةِ الحكم، أي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسك)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 252.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 120.

حين قضى عليها بالموت كان ذلك قضاءً مختصًّا بها، فلا يمكنُ أن يُفْلِتَها، ولا أن يلتحِق ما خُصِّص لها بغيرها. وعلى هذا التّوجيه، فالحصرُ مقترنٌ بالاختصاص.

دلالةُ حرفِ الاستعلاء:

تقديرُ الموت قدَرٌ علويٌّ لا مفرَّ منه

تعديةُ القضاء بحرف الاستعلاء في: ﴿قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ للإشارة إلى أنّ الموتَ تقديرٌ علويٌّ، لا خلاصَ للمرء منه، فهو متمكِّنٌ منه على رُغْمٍ منه وكُرهٍ، ودون سابقِ تخييرٍ أو إعلام[1].

معنى(ال) في ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾:

لا يَستثني الموتُ أحدًا

(ال) في: ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾ من قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ لتعريف ماهيةِ الجنس وحقيقتِه. فهو موتٌ لا يستثني أحدًا، ويجوز أن تكون عهديّةً يُراد بها الموتُ المعهود المذكور في أوّل الآية.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّة المتواترة:

حتميّةُ القضاء بوقوع الموت نافِذةٌ بلا احتمالِ أدنى تعقيبٍ أوِ استدراك

في قوله: ﴿قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ قرأ الجمهور: ﴿قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ ببناء الفعل للفاعل ونصبِ الموت، وقرأه حمزةُ والكسائيّ وخلفٌ: (قُضيَ عليها الموتُ) ببناء الفعل للمفعول وبرفع الموت[2]، وهو على مراعاة نزعِ الخافض. والتّقدير: (قُضي عليها بالموت)، فلمّا حُذف الخافضُ صار الاسمُ الذي كان مجرورًا بمنزلة المفعول به، فجُعل نائبًا عنِ الفاعل، أو على تضمين (قضي) معنى (كتب وقدّر)[3]، والفرقُ بين القراءتين: أنّ قراءة البناء للمفعول أشدُّ في معنى الفِعل من قراءة البناء للفاعل، فإنّ عدم تسميةِ الفاعل وإنابةَ الموت مقامَه في: (قُضيَ عليها الموتُ) يُؤذِن بحتميّةٍ نافِذة في وقوع الفِعل بلا احتمالِ أدنى تعقيبٍ أوِ استدراك.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 518.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 363.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 26.

معنى الواو في قوله: ﴿وَيُرۡسِلُ﴾:

جملةُ ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾[1]، والعطف بالواو؛ لاستتمام التّفصيلِ التّفريعي عن وفاة الأنفس، فكأنّه قيل: فمنها مُمْسَكٌ عنِ الحياة، ومنها مُرسَلٌ إلى استئنافِ أجَلِه في الحياة.

اليقظةُ منَ النّوم بعثٌ جديد يستحقُّ الشّكرَ والتّواضعَ

نكتةُ التّعبير بالفعل المضارع في ﴿وَيُرۡسِلُ﴾:

عبّر بالمضارع في قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ﴾، ﴿وَيُرۡسِلُ﴾؛ للدّلالة على تَكرار تلك الظّاهرة، واستمرارِ حدوثها، كما في قوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ [الروم: 19]، فالتّعبير بالمضارعة إيذانٌ بأنّ ذلك منَ الحقائق الثّابتة والقوانينِ المطّردة. كما يدلُّ التّعبير بالمضارعة أيضًا على استمرار نفْس الإمساك في قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ﴾، أي: يظلّ إمساكُها إنْ أمسكها، ويظلّ إرسالُها إنْ أرسلها.

إمساكُ الأنفس وإرسالُها منَ الحقائقِ الثّابتة والقوانينِ المطّردة

بلاغةُ الطّباق بين ﴿فَيُمۡسِكُ﴾، و﴿وَيُرۡسِلُ﴾:

بين قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ﴾، في حال الموت، وقوله: ﴿وَيُرۡسِلُ﴾ في حال الحياة بعد النّوم، طباقٌ بالإيجاب بين اللّفظين لتصويرِ تضادٍّ بين حالتين متناقضتَين، فالإمساكُ: يدلّ على الثّبات والدّيمومة، وهو مرتبطٌ بالأنفس التي قُضي عليها الموت. والإرسالُ: يدلّ على الإطلاق والعودة إلى الحياة، وهو مرتبطٌ بالأنفس التي لم تُكتب لها الوفاةُ بعد. وهذا التّقابل يُجلّي عن طلاقةِ قدرةِ الله وتدبيرِه في التّحكّم بأمر الحياة والموت، وطلاقةِ المشيئة في تقرير الشّيء ونقيضِه، وإيقاعِ كلٍّ في موقعه، بحسب مقتضيات الحكمةِ والعلم وكمالِ التّقدير والتّدبير.

التّضادُّ في أحوال الأنفس يدلّ على هيمنةِ الله في مقابل عجزِ المخلوق

وتظهرُ قيمةُ الطّباق في الإيجاز البديع لتفاصيل الحالةِ

(1) الخطيب، التفصيل: 24/ 24.

الحاصلة: فالفعلُ ﴿فَيُمْسِكُ﴾ يدلّ ضمنيًّا على استمرار الإمساك، دون الحاجة لتفصيلٍ زائدٍ. والفعلُ ﴿وَيُرْسِلُ﴾ يختزل صورةَ العودة دون إطالة، ممّا يزيد النّصَّ قوّةً وتماسُكًا.

دقّـــةُ دلالـــةِ فعلَيِ الإمساك والإظـهـار على الحالة من صور الايجاز

يناسبُ الإمساكُ الموتَ في الثّبات والقرار، ويناسب الإرسالُ الحياةَ في الحركة والاستمرار.

وتظهرُ أيضًا في المطابقة بين المعنى واللّفظ؛ باختيار فعلَيِ الإمساك والإرسال بما يعكسُه من معنى مقصودٍ بدقّة في هذا السّياق؛ إذ إنّ الإمساك يتناسبُ مع الموت (الثّبات والقرار)، في حين يتناسب الإرسالُ مع الحياة (الحركة والاستمرار).

تناسقُ الألفاظ صوتيًّا يخلقُ إيقاعًا يعينُ على تثبيت المعنى في الذّهن.

الانسجامُ الصّوتي والتّناسقُ بين اللّفظين المُتطابقَين في: ﴿فَيُمْسِكُ﴾، ﴿وَيُرْسِلُ﴾ يخلقُ إيقاعًا لطيفًا يعينُ على تثبيت المعنى في الذّهن، ويُظهر جماليّةَ الأسلوبِ القرآنيّ، فالقبضُ والبسطُ في اللّفظين حاصلٌ في الصّوت بهما، كما هو حاصلٌ في معنييْهما.

معنى(ال) في ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾:

(ال) في ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ من قوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ للعهد الذِّكري، إذِ المرادُ تلك النّفسُ التي سبق ذِكْرُها في قوله: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾. وفيه - أي: العهد الذِّكريّ - إشارةٌ لطيفةٌ إلى فحص السّياق والانفعالِ الشّامل لمكوّناته.

بلاغةُ الإيجاز في لفظ ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾:

ما ظهر مضمونُه أغنى عنِ التّكرار

الاكتفاءُ بالمذكور وهو لفظُ ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولم يقل: (ويرسل التي لم يقضِ عليها الموت) إيجازٌ بليغٌ يقتصدُ في اللّفظ ويُغني عنِ التّكلّف في التّكرار فيما بان معناه، وظهر فحواه.

دلالةُ حرف الانتهاء في: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾:

حضورُ الأجل المُسمّى نهايةُ إرسالِ النّفس إلى الحياة

حرف الانتهاء في قوله: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ أفاد أنّ إرسال النّفسِ للحياة بعد توفّيها في نومها، مُغيًّا بغايةٍ ينتهي ذلك الإرسالُ ببلوغِها، تلك الغايةُ: هي حضورُ الأجل المسمّى، فإذا حضر، فلا إرسالَ.

نكتةُ تنكيرِ الأجل:

إبهامُ الأجل على أنّه صفةٌ غيبيّةٌ غيرُ معلومةٍ للعبد

تنكيرُ لفظِ الأجل في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ على بابه من إفادة معنَى الإبهام، أي: أجلٍ منكورٍ غيرِ معلوم، ووصْفُه بـ﴿مُّسَمًّى﴾ لم يرفع إبهامَه عند السّامع، بل أفاد أنّه غيرُ مُبهَمٍ في نفْسه، فإبهامُه حاصلٌ من جهة السّامع، مُعلومٌ وظاهرٌ في جهتِه العليا عند الله، وهو يفيد أنّ إبهامَه مقصودٌ مُرادٌ لِحِكْمَة؛ إذْ هو من صَفَحاتِ الغَيْب.

نكتةُ التّعبير باسم المفعول ﴿مُّسَمًّى﴾:

لا حيلةَ للعبدِ في رزقِه وأجَلِه فكلاهما قدَرٌ مُسمًّى

مجيءُ وصفِ الأجَل بصيغة اسم المفعول ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ دلّ على ثلاثةِ معانٍ: الدّلالةُ على ذات المفعول، وهو الأجلُ نفسُه بمقداره وكيفيّته، والدّلالةُ على الحدَثِ الثّابت، فتسميةُ الأجل ثابتةٌ دائمة لأنّها حكمٌ مَقْضيّ، والدّلالةُ على الحدوث وهي الفعليّةُ، فهو حادثٌ في الزّمنِ الماضي، وباعتبار ميلادِ كلِّ إنسانٍ فأجَلُه يبدأُ في الحدوثِ معه[1].

دلالةُ التّعبير بالأجل دون غيره:

إذا حضرتِ الآجالُ أغلِقتْ صفحةُ الأعمال

التّعبيرُ بالأجل دون المدّة أو الوقت، للدّلالةِ على آخر الوقت، فالأجلُ هو غايةُ الوقت ونقطةُ النّهايةِ التي ينقضي عندها، والمُدّةُ هي مَدُّ ما بين النُّقطتين أوّلِ الزّمن وآخِره، والوقتُ هو جميعُ ذلك، لأنّه نفْسُ الزّمن، والمرادُ تحديدُ ذلك فيه[2].

(1) السامرائي، معاني الأبنية، ص: 52.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مدد).

دلالةُ وصف الأجل بقوله: ﴿مُّسَمًّى﴾ دون (معلوم):

قد يكون الشّيءُ معلومًا من غير تسمية

وصفَ السّياقُ الكريم الأجلَ بأنّه ﴿مُّسَمًّى﴾ ولم يصفْه بأنّه (معلوم)؛ لأنّ ﴿مُّسَمًّى﴾ أفادت معنى زائدًا على (معلوم) وهو (التّعيين والتّحديد)[1]، فهو معلومٌ على جهة تحديده وتقييده بصاحبه الخاصِّ به، فكأنّ صاحبَ الأجلِ سُمّيَ بأجلِه الخاصِّ به، فلكلٍّ عمُرُه ولِكلٍّ مِقدارُه منَ الجزاء الذي ينالُه؛ أي: حُدِّد له أجلُه كما حُدِّد له اسمُه.

موقعُ جملةِ الفاصلة:

فيما تقرّرَ من حقائق الغيبِ آياتٌ لقومٍ يتفكّرون

جملةُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ أو تعليليٌّ ممّا قبلها، فباعتبارها استئنافًا بيانيًّا تكون كأنّها واقعةً جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّر: (فما في ذلك؟ ولِمَنْ ذلك؟)، فأجيب: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وعلى اعتبارها جملةً تعليليّةً، فتقديرُ المعنى: ذلك الذي تقرّر من حقائق الغيبِ التي ليس لكم منها إلّا ظواهرُها؛ لأجل أن يكون آياتٍ لقومٍ يتفكّرون[2].

فجملةُ الفاصلة تنبيهٌ على عظمته وما فيه منَ الأسرار، وفيه تقريعٌ لِمَنْ يرميه بالأساطير وغيرها منَ الأباطيل[3].

دلالةُ الاستهلال بالتّوكيد:

التّأكيدُ على يقينيّة الآياتِ وتحفيزِ التّفكر لاستجلاء معانيها

استُهِلّتْ جملةُ الفاصلة بالتّوكيد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، ثمّ التّوكيد في قوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾[4]؛ للإيذان بأنّ ما ورد في الآيات من دلائلَ وأحداثٍ هو أمرٌ قاطعٌ لا شكَّ فيه، والغرضُ: إشرابُ قلوبِ المخاطَبين باليقين في هذه الآيات التي هي وسائلُ إلى اليقين في الخالق ﷻ، وتحفيزُهم على تعاطي سببِ ذلك اليقين، وهو التّفكّر الذي يستأهِلُ العقلُ به استبصارَ الآياتِ واستجلاءَها.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 191.
(2) صافي، الجدول: 12/ 190.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 519.
(4) صافي، الجدول: 12/ 190.

بلاغةُ التّقديم والتّأخير:

تقديمُ الجارِّ والمجرور: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على الخبر: ﴿لَآيَٰتٍ﴾[1] يلفتُ الانتباهَ إلى موضع التّأمّل والتّدبّر، وهو مرجعُ اسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يعود إلى ما سبق ذِكْرُه من أحوال الموت والنّوم، وهذا التّقديمُ يعطي اهتمامًا لِما هو محلُّ التّفكير (مرجع الإشارة)، فيفيد اختصاصَه والتّنويهَ بشأنه أنْ كان مُستودعًا ومَجْمَعًا للآيات.

تقديمُ ما يُرتَجى مناطُ التّأمّل والتّدبّر

نكتةُ التّعبير باسم الإشارة للبعيد:

استعمال اسم الإشارة للبعيد في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ولم يَقُلْ: (إنّ في هذا)؛ للإيذان بتعظيم ما يُشار إليه من شؤون الأنفس ووفاتِها حين موتها وفي منامها، وأنّ تلك الظّواهرَ بعيدةُ التّمكّن والإعجاز في باب القُدرةِ والقهرِ الإلهيّ الواسع، ولذا استحقّتْ أنْ تنطوي على الآيات الفذّةِ المُختصّةِ بالفئة العليا وهم أهلُ التّفكّر.

الغافلُ لا يدركُ الآياتِ الفذّةَ المعجزةَ.

يدلُّ استعمالُ اسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ على بُعدِ المُشار إليه عن إدراك الغافلين، مع بُعدِه في عقول المتفكّرين، فهو بعيدٌ عن عقول أهلِ الغفلة، وبعيدٌ في عقول أهلِ التّفكّر، فالبُعد عنِ العقول بمعنى فراغِها عن إدراكه، والبُعدُ في العقول بمعنى تمكّنِها من إدراكه.

امساكُ الأنفسِ وإرسالُها ظواهرُ بعيدةُ التّمكّن والإعجاز في باب القُدرةِ

نكتةُ التّخصيص في: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ جاء الخطابُ بالآيات خاصًّا بفئةٍ معيّنة منَ النّاس، وهم أولئك الذين يتّصفون بالتّفكّر والتّدبّر في الآيات الربّانيّة في أحوال الأنفس، ممّا يبعثُ على التّأمّل والفكرِ العميق. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ الفائدة منَ الآيات لا تُدرك إلّا من خلال التّأمّل والتّفكّر.

المُتفكّرون في آيات الله أهلُ التّشريف والذِّكر

(1) صافي، الجدول: 12/ 190.

معنى اللّام في: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

واللّام في: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هي لامُ الاختصاص؛ أي: آياتٌ تخصّ أهلَ التّفكّر، أو لامُ العلّة؛ أي: جُعلَ في ذلك الآيات لأجل انتفاع واهتداءِ قومٍ يتفكّرون.

نكتةُ اصطفاءِ لفظ: (قوم):

القوميّةُ دالّةُ التّشاركيّة وتعزيزِ التّفكّر الجماعيّ

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (لآياتٍ للمتفكّرين)؛ بل عبّر بلفظ(القوم) فقال: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ أولي الألباب أمّةٌ مجتمعةٌ اجتماعَ القوم على التّفكّر والتّدبّر، ذوو قوّةٍ في مزاولة الأمور[1]. ففيه إلماحٌ إلى أنّهم مُتعزِّزون بولايةِ بعضِهم بعضًا، وتقوُّمِ بعضِهم ببعض، وفيه إشارةٌ إلى أنّ التّفكّر في آيات الرّحمن من وظائف الأمّةِ التي ينبغي أنْ تجتمع عليه اجتماعَ القوم المتظاهرين، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى أنّ التّفكّر يتعزّز وينمو إلى كمالِه وتمامه بتآلف العقولِ عليه، فالعصمةُ في الجماعة لا في الآحاد، فكلّما كان التّفكُّر حاصلًا بتوافقٍ من جماعةٍ ومن قومٍ كان أمكنَ في الصّحّة وأقربَ إلى العصمة وعدمِ الشّذوذ. وفي التّعبير بلفظ (قوم) - أيضًا - إشارةٌ إلى أنّ التّفكّر ظاهرةٌ تنتشرُ بالعدوى الإيجابيّة، والمشاركةِ التّفاعليّة، فهي تتطلّب محيطًا تشاركيًّا تفاعليًّا، وفي هذا دعوةٌ أن يتدارس النّاسُ تلك الآياتِ ويجتمعوا على التّفكّر فيها، حتّى يصير لهم قوميّة وهويّة واجتماع على آيات الكتاب يتدارسونه تفكّرًا وتدبّرًا[2].

دلالةُ الجمع بين الآيات والتّفكّر:

الآياتُ دعوةٌ للتّفكّر العميق لا مجرّد المشاهدةِ السّطحيّة

الجمعُ بين الآيات، والتّفكّر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يوحي بأنّ هذه الآياتِ ليست مجرّدَ دلائلَ ظاهرةٍ، بل

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 519.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، اللسان، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قوم).

هي دعوةٌ للاستبصار والتّفكير العميق، وأنّه لا يُكتَفى معها، بل لا تُستقرأ بمجرّد المشاهدة السّطحيّة، والتّفاعل العابر. وإنّما بتجريد النّفس منَ الشّواغل والتّفكّر في عظمة هذا التّدبير ليُعلمَ به عظمةُ الخالق سبحانه[1].

التّفكّرُ فعلٌ متدرّجٌ وجهدٌ دائبٌ

عبّر بصيغة التّفعّل (التّفكّر) في قوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، للدّلالة على تواتر الجُهد في إحداث الفِعل، وتناوله بقوّةٍ وكُلْفة، وعلى التّدرّج والتّرقّي في حركة العقل بالفِكر وتناميه ونُضجه، فصيغةُ التّفعّل تدلّ على إتيان الفعل بقوّةٍ وإتقان. ولعلّها تشير أيضًا إلى أنّ التّفكّر في مبادئه يأتي تكلّفًا لا عفْوًا حتّى يعتاده الإنسانُ ويصيرَ حالًا عليه يسيرةً غيرَ مُتكلَّفة، أو يشيرُ إلى أنّ الآياتِ لمّا كانت حقائقُها باطنةً غيرَ ظاهرة، كان الوصولُ إلى تلك البواطن لا يحصلُ إلّا بضربٍ منَ التّكلّف، فالنّفاذُ لبواطن الظّواهر يقتضي التّكلّف في ملاحظتها؛ لِضمانِ الخلاصِ إلى لُبابها وبؤرتِها.

التّدبّر والتّأمّل عادةُ المتفكّرين

تآزرَ مع صيغة البناء، صيغةُ الزّمن، بالتّعبير بالمضارعة، ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ التّفكّر المُتْقَنَ ديدنُهم، يتحَرَّوْنَه تحرّيَ الحريصِ المواظِب على الفِعل، حتّى صار من عاداته المألوفة، وأخلاقِه المكرورة. ويدلّ على أنّهم أبناءُ أوقاتهم، فهم لا ينفكّون عنِ التّفكّر في حاضرهم وآنِهم، ممّا يبعثُ المخاطَبَ ويحفّزُه على مُلابسة التّفكّر، وتكلّفِ الاتّصاف به.

بلاغةُ الكنايةِ بطريق الاقتضاء:

التّفكّر شرطُ إدراكِ الآيات

إنّ ذِكْرَ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقتضي أنّ التّفكُّر هو مفتاحُ الوصول إلى الفهم العميق لِمضامين الآيات، فيستلزمُ ذلك: التّنبيهَ على مدى فاعليّةِ العقل بوصفِه آلةً ضروريةً لإجراء التّفكّر الذي هو بوّابةُ اليقين، ومدخلُ الإيمان.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 520.

براعةُ أسلوبِ التّضادّ الضّمنيّ:

المُتفكّر مُنتفعٌ بالآيات، والغافلُ بخسرانه لها ضالٌّ للغايات

ذِكْرُ قولِه: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتضمّنُ تضادًّا مع أولئك الذين لا يتفكرون أو يغفلون عنِ الآيات، ممّا يُجَلّي للسّامع قيمةَ التّفكّر ويفتح مجالًا للموازنة بين الحالَيْن: حالِ الذين يتفكّرون فينتفعون بالآيات، وحالِ الذين يغفُلون، فيخسرون الآياتِ، فلا تُغني عنهم شيئًا. فكأنّه قيل: إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون، وحُجُبٍ وأستارٍ وأغشية عن قومٍ لا يتفكّرون. والغرضُ من ذلك الأسلوب هنا: تحفيزُ الموازنة بين حالَيِ: (التفكّر والغفلة)، بما يكون كنايةً عن دعوةٍ غيرِ مباشرة للابتعاد عنِ الغفلة والانضمامِ إلى أهل التّفكّر. وأيضًا: تعميقُ المعنى بجعل النّصّ أكثرَ شموليّةً؛ إذ يوجّه الخطابَ لِمَن يتفكّرون صراحةً، ولِمَنْ يحتاجون التّحفيزَ للتّفكّر ضمنيًّا.

بلاغةُ أسلوبِ الإيجابِ الضّمنيّ بالنّفيّ:

ثبوتُ حصرِ فهم الآيات بالمُتفكّرين مُستفادٌ ضِمْنًا من نفيه عنِ الغافلين

فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يُثبت معنًى مُعيَّنًا ضمنيًّا من خلال نفي ضدّه أوِ الإشارةِ إلى مقتضاه، فثبوتُ فهمِ الآيات لِمَنْ يتفكّرون – فقط – مُستفادٌ ضِمْنًا من نفيه عنِ الغافلين، فإيجابُ ذلك على جهة الحصر ثابتٌ ضِمنًا بواسطةِ نفيِ الضّدّ، فالمعنى الضّمنيّ الموجَب: هو الحصرُ، وهو اقتصارُ الانتفاع بالآياتِ على (قوم يتفكّرون)، وهذا الاقتصارُ ناتجٌ عن نفي ذلك عنِ الضّدّ، وهو عدمُ انتفاع الغافلين بالآيات. فالإيجابُ الضّمنيّ بوساطة النّفي يركّزُ على إثبات الصّفة، أوِ المعنى من خلال نفي نقيضِها، وهو شبيهٌ بالإثبات بالمفهوم، أو دلالةِ المفهوم. وهنا تجدرُ الملاحظة إلى أنّ الإيجابَ بالحصر ضمنيٌّ، وأمّا إيجابُ المعنى من غير حصر، فصريحٌ، وأمّا نفيُ الضّدّ (ليس لقوم لا يتفكّرون)، فضمنيٌّ كذلك؛ لعدم صراحتِه في منطوق العبارة.

نكتةُ حذفِ متعلّق: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

لم يَقُلِ السّياق الكريم: (يتفكّرون في أيّ شيء)، فحذفَ المتعلّقَ؛ لدلالة ما قبله عليه، وهو التّفكّرُ في الحال المذكورة في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾، أو لإرادة العموم، فكونُ الآية تتحدّثُ عنِ التّفكّر، فقد جاءت بصيغة مفتوحةٍ تحتملُ الإشارةَ إلى السّياق القريب، أوِ السّياق الجامع البعيد، كأنّه يصفُهم بعموم التّفكّر في كلّ آيةٍ، وليسوا مُقتصرين على التّفكُّر في هذه الحال المذكورة في: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، فكأنّه بحذف المُتعلّقِ يمدحُهم مدحًا عامًّا بتلك الصّفةِ في عموم أحوالِهم ومواقفِهم، فإذا كانوا كذلك على كلّ حالٍ، فإنّهم في تلك الحال المذكورة في السّياق القريب أتقنُ لها وأعرفُ وأبصرُ وأجلى؛ لأنّ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيما هو أوسعُ وأعمُّ، فمُدِحوا بوُسْعِهم في التّفكّر، فحُذف المتعلّقُ لأجل ذلك.

إدامـةُ التّـدبّر والـتّـأمّـل في جميع الأحـوال والـحـوادث من خصال المتفكّرين

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»